تسخير كربلاء

في

واقعة الوالي محمد نجيب في عام ١٢٥٨ هجـ ١٨٤٢م

وهي

الواقعة التي ارّخت بكلمتي «غدير دم»

﴿ الطبعة الثانية ﴾

بقلم

السيد عبد الرزاق الحسني

ثمن النسخة ٢٥٠ فلساً

متعهد الطبع والنشر
مركز الابجدية في بيروت

١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م

بيان من

مطبعة دار الكتب في بيروت

ص. ب. ١١٣٥٥٩ - تلفون: ٢٣٧١٢٥

تعرّفنا على الأستاذ عبد الرزاق الحسني منذ أكثر من عشر سنوات فطبعنا كتابه «العراق قديماً وحديثاً» طبعتين بالأوفست، كما طبعنا كتابه الكبير «تاريخ الوزارات العراقية» بأجزائه العشرة طبعتين جديدتين موسّعتين ومزيّدتين. كذلك طبعنا كتبه «تاريخ العراق السياسي الحديث» و «الأسرار الخفية في حركة السنة ١٩٤١ التحررية» و «الثورة العراقية الكبرى» وما يزال الرجل يتعامل معنا بصدق واخلاص، ويطبع عندنا كتب أصحابه ومعارفه، كالسيد ناجي شوكت، واللواء ابراهيم الراوي وغيرهما.

واعترافاً منا بصدق معاملة الأستاذ الحسني وحرصه على تسديد كلف مطبوعاته، وتسامحه في أحايين كثيرة، رأينا أن نطبع له هذه الرسالة الموجزة عن «تسخير كربلا» بألف نسخة ونقدمها إليه هدية متواضعة والله من وراء القصد.

بيروت آب ١٩٧٨ صاحب مطبعة دار الكتب

منير جمال الدين

كلمة لا بدّ منها

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

- وبعد -

هذا بحث تاريخي صرف عن حادثة تاريخية وقعت في كربلاء قبل مئة وخمسين عاماً، كنت نشرته في العددين الثالث والرابع من السنة الثالثة من مجلة «البلاغ» الزاهية قبل عامين ورأيت الآن أن اعيد طبعه في هذه الرسالة الموجزة، بعد ان أضفت اليه بعض المعلومات التي استجدّت، راجياً ان يجد فيها عشاق البحث العلمي متعة تاريخية. ومن الله السداد والتوفيق.

فندق خير الله في بحمدون: غرّة رمضان ١٣٩٨

السيد عبد الرزاق الحسني

تسخير كربلاء

المراقد المقدسة وحرمتها:

كانت المدن المقدسة والاضرحة المطهرة - فيما مضى من السنوات القريبة - حرماً آمناً يُعصم الناس من الأذى في أَحايين كثيرة، ويجعلهم في منأى عن طائلة العقاب بحكم الجوار، حتى أصبحت هذه المدن وهاتيك الأضرحة - بمرور الزمن - ملاذاً لبعض الشقاة والخارجين على النظام، وملجأ للعصاة والهاربين من وجه العدالة في ظروف خاصة، أو قاسية. وقد نسب إلى الرسول الاعظم - ﷺ - أو إلى أحد أَئمة آل البيت عليهم السلام قوله «شرّ أَمتي سكان قبورنا» وإن لم نعثر على هذا القول المأثور في الكتب المعتبرة.

وكانت مدينة كربلاء، إحدى المدن المقدسة في

العراق، وما تزال تتمتع بمركز روحي ممتاز، وحرمة يقدسها المسلمون على اختلاف مذاهبهم وتباعد ديارهم، حيث دارت فيها معركة الشمم والإباءِ بين سبط النبي العربي ﷺ، الحسين بن علي عليهما السلام، وعامل بني أَمية على الكوفة عبيد الله بن زياد، فلا عجب - والحالة هذه - أَن تكون أكثر المدن ازدحاماً بالأغراب، وأشهر مقاماً لذوي النزعات الدينية والسياسية المختلفة.

وكان نفوذ العثمانيين الذين حكموا العراق خلال الأعوام (٩٤١ - ١٣٣٥ هجـ - ١٥٣٤ - ١٩١٧ م.) ضعيفاً، ولا سيما في القرن الثالث عشر للهجرة، التاسع عشر للميلاد، ويكاد يكون معدماً في المدن المقدسة نتيجة لاحترام الولاة لها، وعدم رغبتهم في التدخل في أُمورها، الأمر الذي أَدّى إلى أَن تحكم هذه المدن نفسها بنفسها في ظروف كثيرة وأَحايين خاصة، بحيث استطاع الأغراب فيها أَن يكونوا أَسياد المواقف في بعض المناسبات. وقد

انتبه الرحالة البريطاني، جيمس فريزر، إلى هذه الناحية في رسالته التي بعث بها إلى زوجته في ٢٨ تشرين الثاني من عام ١٨٣٤ م[1] وهذا مقتطف منها:

«ومن الحقائق التي تدلّ على ضعف الحكومة التركية التام في هذه الولاية، أَن جميع العتبات التي لها قدسية خاصة تقريباً، قد جعلت ملاذاً لشرّ الناس في المجتمع وأكثرهم تفاهة... ومن المحتمل أَن يكون هذا قد نشأ عن طبيعة الحماية التي تقدّمها هذه الاماكن للناس من دون تفريق بينهم، ولأنّ هذه الحماية يستغلّها في الدرجة الأولى أَسوأ الخارجين على القانون من الناس بطبيعة الحال. وهكذا يتجمع أَصحاب السوء، وقد يدفعون الكثير من المال من أَجل الحصول على الحماية حتى يكون في مقدورهم الهيمنة عليها، كما هي الحال في محلة الشيخ عبد القادر

---

(١) رحلة فريزر إلى بغداد في سنة ١٨٣٤م تعريب الاستاذ المرحوم جعفر الخياط ص ١٧٤.

ببغداد نفسها، وقد جعل مثل هذا الوضع كذلك في النجف وكربلاء معاً، ولكن بمقياس أوسع، وحالة أسوأ بكثير، إذ ازداد عدد المتمردين المتجمعين هناك بحيث لم يعد من الممكن لحاكم المنطقة، ولا لسلطة الباشا، أن تسيطر عليهم. وهؤلاء لا يفعلون ما يريدون فحسب، بل كانوا أيضاً يطلبون من الزوار الذين يأتون لزيارة العتبات المقدسة، الاذعان لأوحش الطلبات، وأبعدها عن المألوف والمعقول. وفي حالة عدم الانصياع للطلبات، كانوا ينهبون أمتعتهم ويجرّدونهم حتى من ألبستهم، كما يسلبون زوجاتهم وبناتهم في بعض الأحايين. وقد استفحل هذا الشر لدرجةٍ اضطر فيها داود باشا نفسه إلى تجريد قوة ضد النجف، فنجح في اخضاعها للطاعة، ولا تزال كربلاء في حالة ثورة.

جماعة اليارامز:

و«اليارامز» كلمة تركية تطلق على الاوباش والسفلة

الذين لا يصلحون لشيء ، أو الأشرار من طبقات المجتمع ، على حد تعبير الرحالة البريطاني فريزر في ص ١٧٨ من رحلته آنفة الذكر . وقد تكونت جماعات « اليارامز » في كربلاء على عهد الوالي الكولمندي داود باشا ، الذي حكم العراق خلال السنوات ١٢٣٢ - ١٢٤٧ هجـ - ١٨١٦ - ١٨٣١ م . وكانت كل جماعة من هؤلاء تحتمي بزعيم يرأسها ويذود عنها لدى الجهات المختصة ، ولعل جماعة السيد ابراهيم الزعفراني - الايراني التبعة - كانت أكثر هذه الجماعات عدداً ، وأشدّها بأساً وتأثيراً في المجتمع الكربلائي في هاتيك الأيام المظلمة ، فكانت تتحدى السلطات الحكومية علناً ، وتوقع بالابرياء من الأهلين ألواناً من العذاب جهاراً . وما يزال في أحد أَزقة كربلاء الداخلية طاق ينسب إلى السيد الزعفراني ، ويعرف باسم (طاق الزعفراني) .

كانت جماعات اليارامز تعيث فساداً في هذه المدينــة

المقدسة، وتذيق الأهلين ضروباً من التعسف والاضطهاد، ولا سيما حين كانت المنافسة تشتدّ بين أفرادها، فيؤدي اشتدادها إلى الاقتتال فيما بينهم، فيعاني الأهلون المسالمون من ذلك أَنواع الارهاق وضروب الخسائر. ولم يشأ الوالي الكولمندي داود باشا أَن يتدخل في أمور هذه الفئات الفوضوية، أو يشل نشاطها، احتراماً لقدسية المدينة من جهة، وما دامت جباية الأموال الأميرية سائرة سيرها المعتاد من جهة أخرى، إذ كان يدخله منها نحو ٣٥,٠٠٠ قران ايراني في كل سنة، حتى إذا زار أحد الأمراء القاجاريين مدينة كربلاء في عام ١٢٤١ هجـ (١٨٢٥ م) ومعه أَولاده وبناته الحسان، تطاول أحد الافراد من اليارامز عليه، فسلب ما كان معه من أَموال وتحف ومجوهرات، وتجرأَ صحب له فاختطفوا إحدى كريماته، فقفل الامير القاجاري راجعاً إلى بغداد غاضباً، ومستجيراً بواليها الكولمندي. ولما أحاط ممثلو ايران في بغداد

وكربلاء والنجف حكومتهم علماً بما وقع لأميرهم . هذا ، اتصلت حكومة طهران بحكومة القسطنطينية « استانبول » للتدخل وانقاذ الموقف ، فأصدر السلطان عبد المجيد خان العثماني ، أَوامره إلى والي بغداد داود باشا ، بوجوب استئصال شأفة الجناة والشقاة ، وأكد على وجوب استرداد المنهوبات والمخطوفات ، وفرض هيبة الحكومة وكرامتها ، فكانت « وقعة الميرآخور » التي قادها سليمان آخور « أمير الاصطبل » ووصفها المؤرخون باسهاب .

---

(١) من الأحداث الخطيرة التي مرت بكربلا ، وكان لها أعمق الأثر في نفوس ساكنيها وما تزال تتحدث بها الركبان « واقعة الماخور » التي بدأت بمنتصف شهر رمضان سنة ١٢٤١ هجـ . وهي سلسلة وقائع نلخصها عن مخطوط في مكتبتنا اسمه « نزهة الاخوان في وقعة بلد القتيل عطشان » .

أ - الواقعة الأولى وتسمى واقعة القنطرة ، وكان يحمل لواء الجند فيها رجل يدعى درويش ، وقد قتل فيها ثمانية عشر جندياً مع أربعة أفراس لهم ، ولم يفقد أهل كربلاء غير أربعة قتلى .

ولكن لم يكن لهذه الواقعة التاريخية غير تأثير بسيط ،وآثار موقتة على الوضع العام في كربلاء ،إذ سرعان

= ٢ً - الواقعة الثانية: وتسمى واقعة المشمش، حيث دخل الجنود بساتين المدينة، وشرعوا في نهب المشمش منها في وقت خرج الاهلون لجمعه. فاقتتل الطرفان في أرض الجويبة، وتغلب الكربلائيون على خصومهم.

٣ً - الواقعة الثالثة: وتسمى واقعة الهيابي، وهي أشد المعارك التي دامت عدة ساعات، ووقعت فيها خسائر جسيمة في الاعتدة والأنفس. فقد جوبهت، الحملة التي كان يقودها صفوك، بصمود واقتتال أديا إلى جرح القائد نفسه، فندب الوالي داود باشا أمير اصطبله سليمان ماخور لقهر الكربلائيين، وكان هذا القائد خبيراً بفنون القتال، وسبق له الاشتراك بنجاح في معارك مختلفة، فقاد قوة كبيرة مزوّدة بالمدافع والقنابل قدرت بألف وخمسمئة جندي. فلما وصلت هذه القوة إلى أطراف كربلاء، عسكرت في الحرّ، على مسافة خمسة كيلو مترات، فقطعت الماء عن المدينة. ولما شرعت في مهاجمتها، تصدى لها الأهلون وقاتلوها قتالاً عنيفاً. ويقال ان جثث القتلى غطت أرض الحرّ والهيابي والوادي.

ما عادت جماعات اليارامز إلى سابق أفعالها بمجرد أن انتهى عهد الوالي داود باشا في عام ١٢٤٧ هجـ - ١٨٣١ م.

٤ً - الواقعة الرابعة: وتسمى واقعة الاطواب أو واقعة باخيْـة. وباخية اسم امرأة كانت تتلاقف قنابر المدافع بيدها - كما يقولون - وتكيل الشتائم للجند، وان عدد القنابر التي قذفتها مدفعية الجيش تراوح بين الاربعين والستين قنبرة، ولكنها لم تؤد إلى نتيجة حاسمة.

٥ً - الواقعة الخامسة: ويقال لها واقعة الخيمكَاة، وقد سميت كذلك لأن قائد الجيش اتخذ من موضع الخيمكَاة مقراً لخيله، ومعظم جنده، ووزع بقية أفراد قوته على مختلف المواضع، ولما قامت قواته بهجماتها على الأهلين، قاتلها هؤلاء بشجاعة، وفقد منهم أربعة قتلى، ولم تعرف خسائره.

٦ً - الواقعة السادسة: وتسمى واقعة البردية، وفيها استولى الأهلون على عدد من خيول الجند، وبنادقه، ومدافعه.

٧ً - الواقعة السابعة: ويقال لها واقعة بني حسن، فإن قائد الجيش، بعد أن عجز عن مقارعة الكربلائيين، استعان بقبيلة بني حسن المجاورة، بعد أن أغرى=

اليارامز وعلي اللاز:

ولما حلّ الوالي علي باشا اللاز، محل الوالي داود باشا

= رؤساءها بالمال ونحوه. وعلى الرغم من أن هذه القبيلة كانت مع الكربلائيين في حلف، فإن رؤساءها تعهدوا للقائد بقهر المدينة، وسبي أهلها، ونهب أموالها، وما لبثوا أن عبروا نهرانها، وأحاطوا بجدرانها، فهبّ الأهلون يقاتلونهم قتالاً مريراً حتى تمكنوا من الحاق الهزيمة بهم، وقتل بضعة أنفار منهم. فأدرك القائد أن لا قبل لأحد على كربلاء ومن فيها.

٨ً - الواقعة الثامنة: تسمى واقعة الامان،« ووجه هذه التسمية أن قائد الجند بعد أن ضاق ذرعاً بالكربلائيين وحروبهم، لجأ إلى الحيلة، فأعلن الأمان باسم الوالي داود باشا، وعفا عن كل ما سبق، فاطمأن الناس إلى هذه النتيجة، وإذا به يفاجىء المدينة في ليلة الخامس عشر من ذي الحجة بوابل من القنابر، فعاد الأهلون إلى التجمع والنضال، وتمكنوا من دحر الجيش رغم تفوقه عدةً وعدداً، فأدرك الوالي داود باشا سوء المنقلب، واستعان برجال من عكيل القصيم، والاحساء، وغيرها، فعسكروا على صدر الحسينية، وقطعوا الماء=

الكولمنـدي في حكم بغداد (١٢٤٧ - ١٢٥٨ هجـ - ١٨٣١ - ١٨٤٢ م) أعار مدينة كربلاء أهميـة خاصة، وسعى لاصلاح ما فسد من أمورها، وجمع من تشتـت من أبنائهـا، لأنـه كـان بكتاشي الطريقـة[1] مغرقاً في محبـة آل بيت

ونهبوا السابلة، وقاموا بأعمال تقشعر لها الأبدان. واضطر الوالي إلى مهادنـة المدينـة وزيارتها «وكفى الله المؤمنين القتال».

(١) البكتاشيـة، أو البكطاشيـة، طريقـة من الطرق الاسلاميـة الصوفية المعروفة، تنسب إلى أحد الأولياء «واسمه الحاج بكتاش ولي» وهو العارف بأمر الله السيد محمد الرضوي من أولاد الإمام الرضا، أو من أولاد الإمام الكاظم، وقد ولد في ناسبور بايران، وذهب إلى الاناضول في تركيا فهدى الانكشارية إلى الإسلام - على أصح الروايات - إلا ان أتباعه غلوا في طريقته حتى تركوا أكثر الفرائض اليومية، والامور التعبدية، فلم يأتلف به أكثر المتشرّعة من المسلمين. ويتفق القزلباش في شرقي آسيا الصغرى، وكردستان، والعلي اللاهيـة الذين يغالون في علي بن أبي طالب من ايران والعراق، مع البكتاشية في أصول عقيدتهم، وان كانوا يفتقرون إلى نظام هؤلاء الصارم. وقد توفي الحاج بكتاش سنة ٧٣٨

المصطفى (ﷺ) . فلم يمسسها بسوء ، ولم يلتفت إلى ما كان وقع فيها من قبل ، فأخذ الناس يعودون إلى المدينة تباعاً ، كما أخذ الايرانيون الهاربون من وجه العدالة والتعقيبات القانونية «يلجأون اليها من ماردين إلى المحمرة» . وهكذا أخذ عدد اليارامز يزداد في هذه المدينة بالتدريج حتى بلغ اثنى عشر ألف رجل ، فاستهانوا بالوالي الجديد ، بعد أن أمنوا من بطشه ، وعادوا إلى سابق استفزازهم . استأنفوا ابتزاز الأموال من الناس ، وأمعنوا في سلب الحريات والاعتداء على الابرياء ، وجاهروا بتحدي السلطة حتى اضطر العالم المجتهد ، والكاسب الرعديد ، والحاكم المسكين ، للخضوع إلى سلطة هؤلاء الاوباش ، مما حمل الوالي علي باشا اللاز على

= هجـ (١٣٣٧م) وهي تقابل كلمة بكتاش بحساب الجمل . ودفن في تركيا وما يزال قبره يزار ويتعهده أصحابه بالرعاية والزيارة .

التفكير في أمرهم. لتخليص الناس من شرورهم، فقرر تجريد حملة عسكرية لكبح جماحهم، وإرهاقهم بالضرائب والرسوم لارجاعهم إلى سواء السبيل.

ويقول المؤلف العراقي المجهول في مخطوطته، على ما يرويه الاستاذ المرحوم عباس العزاوي في ص ٦٥ من الجزء السابع من كتابه الكبير «تاريخ العراق بين احتلالين»:

«وفي أيام علي باشا - اللاز - حاصرها، وخرج اليه سادات البلد وزعماؤها، وتكفلوا له بزيادة الايراد، فارتحل عنهم. وكان ذلك الوالي لا يبالي بعصيانهم ومرامه الدراهم. وقد أدوا له سبعين ألف قران، المثل اثنين - عما كانوا يؤدونه إلى داود باشا - فرضي وتركهم».

ولكن بعد ان أَبقى فيها حامية من الجماعة المناوئة لعقائد أَهلها، من بني سالم والكبيسات، فلما طالت أَيام الباشا اللاز وكثرت سوءاته، نقل من بغداد إلى الشام ليحل محله وآل جديد.

اليارامز ومحمد نجيب:

حلّ محمد نجيب باشا محل علي باشا اللاز في حكم ولاية بغداد. وقد قيل في تسويغ هذا النقل، انه اختير لهذه الولاية للشروع في عهد التنظيمات الجديدة، فامتدت ولايته من عام ١٢٥٨ - ١٨٤٢م إلى عام ١٢٦٥ هجـ - ١٨٤٨ م وكان قد نقل اليها من الشام، ووصل إلى بغداد في أَيلول ١٨٤٢ م. والمعروف عن هذا الوالي انه كان من أسرة كبيرة في اسطنبول، ومن المقرّبين إلى السلطان، وانه كان ذا ذكاء وشجاعة وحيوية خارقة، كما كان صارماً في أَحكامه، شديد القسوة في اجراءاته، فلما علم ان اليارامز ما زالو يصولون ويجولون في كربلاء، ويعيثون فيها وفي أطرافها الفساد، وانهم لا يهابون قوات الدولة النظامية ولا يرهبهم بطشها، وان جميع الحملات التأديبية التي سيقت عليهم من قبل لم تأت أُكلها، بل باءت بالفشل، قرّر في السنة الثانية من حكمه ان يدلي بدلوه، ويجرّب حظه في

أمر القضاء على هذه الشراذم، وفرض سلطة القانون والنظام في المدن المقدسة، ولا سيما وهو المشهور بتعصبه المذهبي، والمعروف بقوة بطشه وحزمه في معالجة ما يوكل اليه من الامور المستعصية، فأعرب عن رغبته في زيارة مدينة كربلا، والتعرّف على علمائها وسراتها وأصحاب الرأي فيها، فإذا بأولي الحل والعقد فيها يطلبون اليه وجوب تحديد عدد الأشخاص، الذين سيرافقونه في هذه الزيارة، ويصرون على ألاّ يتجاوز ذلك الستة، فيسوء هذا التحديد وقعاً في نفس الوالي، ويزيد في حنقه وتصميمه على وضع حد لهذا الاستهتار بهيبة الحكومة المركزية. ومما زاد الطين بلة والعزم توكيداً، ان المدينة كانت قد رفضت تموين حامية المسيب الحكومية، القريبة منها، بالارزاق التي كانت الحاجة قد مست اليها في عام ١٨٤٢ م.

الوضع العام في كربلاء:

هنالك وصف عام للحالة التي كانت تسود

كربلاء أيام اليارامز، كتبه مؤلف مجهول لم نرَ بداً من اثباته، تمهيداً لما نريد ان ننشره عن هذه التمثيلية أَو المأْساة. قال المؤلف المجهول:

«ان كربلاء كانت عاصية على وزراء بغداد، فسيّر العساكر اليها - محمد نجيب باشا - وكان بها السيد ابراهيم الزعفراني، رجل أَصله عجمي، وترأس على أوباشها وسفهائها، وأَطاعه أرذال البلد المفسدون، وهم يتولون الحرب، وعامتهم من أَيام داود باشا. كانوا عاصين إلا انهم يؤدون شيئاً قليلاً عوض خراجها - نحو خمسة وثلاثين أَلف قران - وكل من يعمل مفسدة في العراق، أَو يأكل أَموال الناس، يذهب إلى كربلاء، ويستجير بهؤلاء الأراذل، حتى اجتمع عندهم مقدار عشرة آلاف مقاتل من أَجلاف الناس. وعصت أَيام داود باشا، وعلي باشا. انهم عصاة بغاة يؤذون السكان الذين في كربلاء، حتى انهم مرة امسكوا أحد مجتهديهم السيد

ابراهيم القزويني ليلاً، ولم يطلقوه حتى أدى لهم أربعة آلاف قران من سكة محمد شاه فأطلقوه. فهم مفسدون، ذوو جرأة على أعراض الناس، وأهل البلد يأوونهم ويخافون على أنفسهم، لأنهم متى أرادوا، هجموا على بيت أحدهم ونهبوه. والحاكم الذي هو من أهل البلد طوع أيديهم، ولا يعارض بما يفعل هؤلاء الباغون الفجرة...» انتهى المقصود[1]

وأول الغيث قطر:

أراد الوالي محمد نجيب باشا ان يفهم اليارامز، وبقية القاطنين في كربلاء، انه يبيّت لهم أمراً خطيراً اذا لم يتركوا الشقاوة، ويعيدوا للقانون والنظام قدسيتها، وانه مصمم على ان يجتثّ بؤرة الفساد من هذه المدينة المقدسة، وإن

---

(١) ـ عباس العزاوي في كتابه «العراق بين احتلالين» ج ٦ ص ٢٨٧ - ٢٨٨.

تطلّب الأمر هتك حرمتها، وامتهان كرامة ساداتها ووجهائها، وكان قد توجه الى المسيب القريبة منها على رأس قوة أَعدّها لتأديب القبائل المتمردة من المعدان، فوجه رسائل الى فريق من الرؤساء والمجتهدين في المدينة، يطلب فيها مساعدته على إدخال جيشه الى المدينة، وينذرهم بوجوب خضوعها الى سلطات الحكومة، والشروع في نزع سلاحها خلال شهر واحد، وإلا فعليها ان تعرف مصيرها. فشعر العقلاء والبارزون بالخطر يحيق بهم، وبمدينتهم المقدسة، فلم يروا مانعاً من ان يتفق السيد كاظم الرشتي وعلي شاه القاجاري، احد أبناء فتح علي شاه، وكان يقيم في كربلاء، مع الوالي محمد نجيب باشا، على ان يبعث إليهم أحد وجوه بغداد يبحث معهم أمر مستقبل الحكم، لأن البلدة كانت تتمتع بنوع من الحكم الأهلي يرأسه السيد وهاب الطعمة وقد تم الاتفاق مع هذا الوجيه على ان تدخل الحكومة إلى المدينة حامية

عسكرية لا يتجاوز عدد أفرادها الخمسمائة جندي.
وكادت الأزمة تنتهي على هذا الأساس، لو لم يتغلب التعصب الأعمى على المنطق السليم، فيؤدي ذلك الى فشل المساعي التي بذلت لخير الطرفين، وهكذا أخذ كل فريق يستعد لمواجهة الموقف الخطر.

«ويخيل لي ان الكثيرين من أهل كربلاء لاسيما رجال الدين والتجار الكسبة- لم يكونوا راضين عن الحالة، أو راغبين في محاربة الحكومة، ولكنهم لم يستطيعوا الإفصاح عن نياتهم خوفاً من اليارامزية، وهذا ما يحدث عادة في كل مجتمع يسيطر عليه السفلة والغوغاء، حيث يعلو فيه صوتهم، ويخفت صوت من عداهم، والويل لمن يعارضهم في شيء. أضف إلى ذلك أن النزعة الغوغائية التي تستفحل في مثل هذه الحالة، قد تدفع الكثير من الناس إلى الحماس والهتاف وإبداء الشجاعة المصطنعة. وقد ينتشر الحماس الغوغائي بين السكان، كما ينتشر الوباء الجارف، وبذا يسير

المجتمع نحو الكارثة خطوة وراء خطوة، كأنها القدر المحتوم[1]».

على أن الوالي لم يشأ التسرّع في تنفيذ ما كان قد أعده من خطط جهنمية لفض مشكلة اليارامز المستعصية في كربلاء، التي أَخذت تتفاقم على مرّ الأيام، فاتصل بقناصل إيران، وبريطانية، وفرنسة، وببعض الشخصيات الإيرانية القاطنة في كربلاء، وطلب مساعدتهم لإصلاح ذات البين بينه وبين الكربلائيين، وإنقاذ الموقف من التردّي. وكأنه أَراد بحركته هذه أن يظهر نفسه وكأنه غير مسؤول عما سيحدث من أزمة سياسية بين الدولتين: العثمانية والإيرانية، فيما إذا قرر المضي في تنفيذ خطته، فلم يسفر تشبثه هذا عن أَي أمل في النجاح «وكانت الحكومات البريطانية، والروسية، والفرنسية،

---

(١) الدكتور علي الوردي في كتابه «لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث» ج ٢ ص ١١٩.

تستغـلّ تلـك الفرق لتثبيـت أقدامها وتحقيـق مصالحها »[١].

صراع مذهبي داخلي:

كان القرن الثالث عشر للهجرة، التاسع عشر للميلاد، خاتمة نزاع بين فكرتين قديمة وحديثة هما الفكرة الاصولية والفكرة الاخبارية، ولم يقتصر هذا النزاع على اصول الفقه والأحكام فحسب، وإنما تسرّب الى المعتقدات أيضاً، فكانت هناك آراء جديدة في ماهية المقلَّد والمجتهد، أي الرئيس الذي يتولى منصب الإمام... وقد ألفت في ذلك مؤلفات عدة نقض فيها كل رأي خصمه، ودخلت هذه المباحثات اصول علم الكلام والفلسفة، فأصبح الموضوع واسعاً، وأَصبح التفكير فيه يتطلب تعمقاً في النظر، ووقوفاً على قواعد المنطق القديم.

---

(١) بيردي فوصيل - سفير فرنسا - في رسالته «الحياة في العراق منذ قرن» تعريب الدكتور أكرم فاضل.

وكان للشيخ أَحمد الإحسائي في بداية هذا القرن، مكانة سامية وذكرى شهيرة في أَندية العلم ومحافل التدريس في كربلاء، والنجف، وإِيران، كما كانت له مؤلفات يتداولها قسم من طلاب المعرفة، ولكن فكرته - لما فيها من الغموض والإِبهام، ولما يستعمله مؤسسها من العبارات المعقدة التي ترى بحسب ظاهرها غير ملائمة لقواعد المذهب والدين - كانت ممقوتة، وكان الاعتقاد بها يعدّ مروقاً عن الدين، وخروجاً على قواعد الإمامية. وعلى الرغم من ذلك كله، فقد كان له طلاب يلازمون درسه، وأَعوان يترددون إِلى مجلسه، وآخرون يبثون الدعاية له هنا وهناك. وقد سمي هؤلاء بالشيخية نسبة الى الشيخ أَحمد موضوع البحث.

وكان السيد كاظم الرشتي في مقدمة اولئك الطلاب والدعاة، لأنه كان قد تلقى دروسه الاعتقادية على الشيخ احمد الاحسائي نفسه، ومع أَنه كان من أَشد أَنصاره،

فإنه لم يرَ رأي شيخه وأستاذه بعد وفاته في عام ١٢٤٣ هـ. ١٨٢٧م.، وأخذ ينفرد بعده بآراءٍ وأفكار تختلف اختلافاً كبيراً عن أفكار وآراء شيخه واستاذه الشيخ أحمد الاحسائي، وقد اشتهرت طريقته بالكشفية، إلا أنه – أي السيد الرشتي – لما تلقى نبأ وفاة شيخه – الاحسائي – حزن عليه حزناً عميقاً، ووجد نفسه محاطاً بخصوم يحصون عليه أنفاسه، ويهزأون بأفكاره وتعاليمه.

استغلال الخلاف:

وكان الوالي محمد نجيب باشا قد سمع بالانقسام المذهبي في كربلاء، والخلاف الناشب بين الأتباع الشيخية، والأتباع الكشفية، حول أمور اجتهادية محضة، فقرر إستغلال هذا الانقسام، وكتب الى السيد كاظم الرشتي أن يتدخل لتجنيب المدينة المقدسة كارثة مؤكدة. ولعل

أَحسن رواية تروى عن الحالة التي كانت كربلاء تتمخض بها في تلك الأيام الحالكة الظلام، واتصال الوالي برؤساء المدينة، ما كتبه محمد زرندي الملقب بـ «نبيل» في كتابه «مطالع الأنوار» وهذا نصه:

«كان السيد - كاظم الرشتي - يتحمل إهانة أهل الشرور والفساد بكل شجاعة... وكان يتحمل بسكون وهدوء جميع الشتائم والسخرية التي كانت تكال له... ولم يرتفع أي صوت في الاحتجاج ضد هؤلاء... ولكنه عاش ليرى في أواخر أَيامه كيف أَن يد الغيب قد أَهلكت جميع معانديه... فغضبت الحكومة العثمانية المركزية من تهديدهم، ووعيدهم، وأرسلت ضابطاً عربياً لمكان الثورة، ومعه التعليمات لإطفاء نيرانها، فحاصر الضابط المدينة بالقوة التي كانت معه، وأَرسل الى السيد كاظم الرشتي رسالة يطلب فيها أَن يهدىء الثورة الفكرية... وأَن ينصحهم بالاعتدال، ويطلب منهم أَن

يخضعوا لأمره وحكمه، وانهم لو فعلوا ذلك، يكفل لهم حياتهم، ويؤمنهم، ويأمر بالعفو العام، ويجتهد في كل ما يكفل راحتهم. وأما إذا رفضوا فإنه ينذرهم أن حياتهم تكون في خطر، وتنزل عليهم المصائب الجمة. وبمجرّد وصول الرسالة إليه، أحضر السيد كاظم رؤساء الفتنة، ونصحهم بغاية الحكمة، أن يكفوا عن الهيجان، وأن يسلموا أسلحتهم... حتى لانت قلوبهم، وهبطت مقاومتهم، وعزموا على فتح أبواب القلعة ثاني يوم، وأن يسلّموا أنفسهم بصحبة السيد كاظم إلى القائد... ولكنهم بعد ان تركوا مجلسه، قام فيهم العلماء، أعداء السيد، وحرّضوهم على عدم الاذعان... ولما كان السيد كاظم عالماً بالضرر الذي يلحق بالثائرين، كتب رسالة الى القائد التركي نجيب باشا، وأفهمه حقيقة الموقف، فأجابه القائد مرة أخرى طالباً منه إعادة النصح للأهالي، وانه سيفتح أبواب المدينة في ساعة معينة، ولا يؤمن أحد فيها إلا من

التجأ الى منزل السيد . ولما وصلت الرسالة ، قام بنشرها في كافة أنحاء المدينة ، فقابلوها بالاستهزاء والسخرية . ولما أخبر بذلك قال - ان موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب ؟ - وفي الفجر ، في الساعة المعينة ، هاجمت القوات المرابطة القلعة ، وهدموا الأسوار ، واستبيحت المدينة قتلا ونهباً ، وهرب الكثيرون ملتجئين الى حرم المقام الحسيني ، والتجأ آخرون الى مقام العباس ، وهرع الى منزل السيد كاظم أحباؤه ومعارفه ، وازداد عددهم بدرجة انه اضطر الى إضافة المنازل المجاورة لمنزله ليكون الجميع للاجئين ، وازدادت الجموع التي هرعت الى منزله حتى انه بعد هدوء الحالة ، وجدوا عشرين شخصاً توفوا من شدة الزحام »[1] .

---

(١) مطالع الأنوار لمؤلفه محمد زرندي الملقب بـ « نبيل » ص ٢٧ - ٢٨ وأصله باللغة الفارسية فترجمه شوقي أفندي رباني الى اللغة الانكليزية ، والقاضي عبد الجليل سعد الى اللغة العربية ، وطبع عربياً في القاهرة سنة ١٩٤٠م .

الشروع في الحركات:

كان الوالي محمد نجيب باشا قد توجه الى المسيب لتأديب قبائل المعدان الثائرة في وجه الدولة، واتخذ من هذه القرية مقراً لقيادته، ومركزاً لما كان ينوي القيام به ضد الكربلائيين، فلما انقطع رجاؤه في تسوية مشكلة اليارامز في كربلاء بالحسنى، هيأ قوة كبيرة لتسخير هذه المدينة، واستئصال شأفة المتمردين فيها. وكان قوام هذه القوات ثلاث كتائب من المشاة، وكتيبة واحدة من جنود السباه الحكومية، يعززها عشرون مدفعاً، وبعض المقاتلين الاكراد الذين استدعاهم من كردستان بقيادة احمد باشا بابان لهذا الغرض، مضافاً الى زمر من القبائل العربية العاملة في القوات الحكومية من العبيد- بالتصغير- وغيرهم. وقد عقد لواء هذه الحملة للفريق مصطفى باشا- وفي رواية لكرد محمد باشا[1]- ووجهها الى كربلاء في

---

(١) صور من تاريخ العراق للاستاذ جعفر الخياط ص ٣٠٧.

الثالث عشر من شهر ذي القعدة سنة ١٢٥٨ هـ. - ١٩ كانون الاول سنة ١٨٤٢م. فضربت القوة حصاراً واسعاً على المدينة المزدحمة بالزوار والاغراب والمجاورين، واحاطت بسورها العظيم إحاطة السوار بالمعصم، وضيقت على السكان ضيقاً افقدهم رشدهم وصوابهم، حتى اضطرهم لشرب مياه الآبار المجة، واللجوء الى التقتير والتقنين في توزيع الأرزاق، وقد استمرت الحال على هذا المنوال ثلاثاً وعشرون يوماً. فلما شعر الناس بوطأة الحصار، وفشلت الوساطات لإصلاح ذات البين، اجتمع الزعماء والرؤساء، واخذوا يتداولون الوضع فيما بينهم من جوانبه المختلفة. وعلى الرغم من الانقسامات العقائدية التي كانت تفتك بين صفوف الناس يومئذ، ولا سيما بين رجال الدين وحملة ألوية الشريعة، على نحو ما ذكرناه من قبل، فقد استقرّ الرأي على ضرورة عرض طاعة المدينة وخضوعها للسلطة الحكومية، فلما فوتح قائد الحملة بهذه الرغبة

رفض قبول الاستسلام إلا بأصعب الشروط وأَشدها قسوة وإرهاقاً ، ومن ذلك تسليم عائلات بعض الزعماء الى قيادة الجيش ، لتكون بمثابة رهائن لتنفيذ شروط المهادنة ، ولكن الأهلين رفضوا هذه الشروط القاسية بكل إباء وشمم ، خشية ان تهان اعراضهم ، ويدنّس شرفهم ، ولا سيما وأَن الكثرة فيهم من الأسر المحافظة . وعلى الرغم من ان هؤلاء كانوا يعلمون علم اليقين باستحالة التغلب على قوات الحكومة ، التي كانت تفوق قواتهم عدة وعدداً ، فقد ارتأوا عقد اجتماع موسّع في الروضة الحسينية ، ضمّ رؤساء كربلاء ، وكبار مجتهديها ، وسراتها ، وأصحاب الكلمة النافذة فيها ، وقد تقرر في هذا الاجتماع إجلاء العائلات عن المدينة من ابوابها الجانبية ، الى مضارب القبائل العربية المجاورة ، لتكون في حمايتها ، كما تقرر الاستنجاد برؤساء آل فتلة ، وبني حسن ، واليَسار ، وآل زغبة ، وغيرهم من رؤساء القبائل القريبة والبعيدة ، لانقاذهم

مما هم فيه من ضيق وامتهان، والاسهام في الدفاع عن أموالهم، وأعراضهم، وأنفسهم، حتى يقضي الله أَمراً كان مفعولا. وقد لبّى الرؤساء المجاورون نداء الواجب - والكريم يلبي - فأرسلوا ما تمكنوا من إرساله من المقاتلين والفرسان، وقد قدر البعض عددهم بألفين، وبالغ البعض الآخر فرفع العدد الى ثلاثة آلاف، ولكن أنّى للقوات الأهلية ان تقف في وجه الجيوش النظامية المعززة بأحدث أنواع البنادق، والمجهزة بمختلف أساليب الدمار؟.

وعلى كل فإن قائد الحملة لم يتوان عن التشبث بالوسائل المختلفة لانقاذ الموقف، وفض المشكل بالتي هي أَحسن. فلما فشلت الوساطات والشفاعات، قرر أن يضرب ضربته الأخيرة، فأمر أولاً بقطع اشجار البساتين المحيطة بالمدينة، ليكون الطريق فسيحاً أمام الجند، بحيث لم تبق نخلة واحدة بينهم وبين السور. وكان المقاتلون من الأهلين

يضربون الجنود الذين ضربوا مخيماتهم في السهل ، وهم معتصمون فوق السور خلال هذه الفترة ، فيرد الجند عليهم بالمثل . ثم أَوعز الى قائد المدفعية ان يشرع في هدم السور المحيط بالمدينة ، مهما كلفه الأمر ، ليتمكن الجنود من الدخول إليها بيسر ، ويقضي على المقاومة وعلى القبائل التي نفرت للمساعدة .

وفي فجر اليوم الحادي عشر من شهر ذي الحجة سنة ١٢٥٨ للهجرة ، الثالث عشر من شهر كانون الثاني سنة ١٨٤٣ للميلاد ، أَخذت المدافع في إطلاق قنابرها على السور بشدة ، فاستطاعت ان تفتح فيه ثغرة واسعة من ناحية باب النجف ، وإذا بفريق من الجند يتسلق السور ويمشي فوقه بسلاحه ، وفريق آخر يدخل من الثغرة ويتغلغل في أطراف السور . وكان الفريقان يطلقان النار على كل من يلقيانه ، فهال ذلك امر المدافعين ، واتّقدت جذوة المقاومة في نفوس الأهلين ، واشتعلت نيران

الحماسة في صفوفهم على اختلاف طبقاتهم وتباين نزعاتهم، على الرغم من الخلافات المزمنة التي كانت متأصلة في نفوسهم، فنزلوا الى ميدان القتال متحدين متضامنين.

وكانت في كربلاء حامية ايرانية من الجنود البرطاسية محدودة العدد، كان الشاه محمد القاجاري قد اتفق مع حكومة بغداد على ابقائها في هذه المدينة المقدسة لحراسة القنصلية الإيرانية، ورعاية الجالية الايرانية الكبيرة القاطنة فيها. مثلها في ذلك مثل الزورق البخاري الحربي الذي كان يرابط أمام القنصلية البريطانية القائمة على سيف دجلة الأيمن في بغداد، مع حرس السباه الهندي الذي كان يتولى، مع الزورق المذكور حراسة القنصلية المذكورة منذ أواخر القرن التاسع عشر، فلما شعرت هذه القوة الأجنبية بالظلم الذي يحيق بالمدينة، انضمت الى قوات الكربلائيين، والتحمت الجيوش الحكومية النظامية مع القوات الشعبية في معركة ضارية

استمرت وقتاً طويلاً فتغلبت القوات النظامية على قوات الأهلين في نهاية الأمر، لأنها استبسلت في القتال، ولا سيما بعد أَن سمعت الغوغاء يسبّون خليفة المسلمين على مسمع من الجنود وضباطهم جهاراً، واندفعت الى دروب المدينة وأسواقها، وأَزقتها بأعداد كبيرة، وسيطرت على الوضع العام في اليوم الثاني لعيد الأضحى، فتراجع المدافعون الى ديارهم يختبأون فيها، ويتطيرون من مستقبل مظلم، واحتمى عدد كبير بصحن العباس، أخي الإمام الحسين، على أَمل النجاة من الكارثة، وإذا بقوات الحكومة تشرع في القتل العام، والسبي والنهب والتخريب بشكل فظيع، وهكذا استباح الجند كربلا مدة تتراوح بين الثلاث والخمس ساعات سبيت خلالها العائلات، وهدرت دماء الأبرياء من الشيوخ والأطفال، ولم ينج من القتل العام والملاحقة إلا الذين احتموا بالصحن الحسيني، وبدار السيد كاظم الرشتي، والدور التي ضمها السيد الى داره لتكون حرماً

آمناً على نحو ما ذكرناه في موضع آخر. ولما بلغ القائد باب الحرم الحسيني وصحبه، خرج إليه الحاج مهدي كمونة ومعه لفيف من السدنة، وهم يتباكون ويلطمون وجوههم، ويطلبون الأمان، وقد لفوا عمائمهم حول رقابهم حتى يؤثر عن الحاج مهدي أَنه قال للقائد ما معناه: إننا لم نخلع الطاعة، ولم نخالف الجماعة، فلا يصح أخذ الأبرياء بذنوب المفسدين والفوضويين، فترحّم علينا بالأمان والاطمئنان، بحيث رقّ قلبه، فأمر بالكف عن القتل والملاحقة، فنجا بهذه الوسيلة كل من كان في الصحن الحسيني، إلا من مات من شدة الزحام.

وفي الوقت نفسه كان بقية الجنود قد اتجهوا نحو صحن العباس، الذي ازدحم هو الآخر بالمستجيرين والخائفين، فتبعهم قائد الحملة. ولما وجد أَبواب الصحن مغلقة، أَمر الجنود بقلع أَحد الأبواب، ففعلوا ذلك ودخلوا الصحن عنوة، وشرعوا في قتل كل من فيه من أَطفال

ونساء وشيوخ عجّز ، حتى انقلب « الصحن » الى جحيم لا يطاق ، بحيث لم يبق من يتحدى السلطة الحكومية وقوتها الباطشة، وعندها أمر القائد بالأمان، وشخص الوالي محمد نجيب باشا الى المدينة بنفسه، إذ دخلها من باب بغداد في جهتها الشمالية، ومرّ كالبرق الخاطف الى المعسكر. فلما حل المساء، كانت المدينة في عداد الأموات، وتولى الحاج مهدي كمونة وصحبه حماية الحرم الحسيني، وتنظيف صحن أَخيه العباس، من جثث الموتى ودمائهم، ولما كان الصباح عاد الوالي فدخل المدينة مرة ثانية، ومعه رؤساء جنده، يتقدمهم الفريق على صهوة جواده، والجنود خلفه، ثم اتجه الى صحن الحسين (ع) وعلى يمينه السيد كاظم الرشتي، وعلى شماله الحاج مهدي كمونة، وخلفهم خدم الروضة يحملون أَعلامها، وفي أيديهم نسخ الفرقان العظيم. وبعد أَن طاف بالصحن، وأَدى واجب الزيارة بأدب واحتشام، توجه الى تكية السيد محمد تقي الدده، ومعه

الملا علي الخصيّ، والشيخ وادي الشفلّح رئيس الزبيد وغيرهما، ومن كان معه من وجوه بغداد وسراتها، فأمر مناديه ان ينادي بالأمان. ثم سأل عن السيد وهاب الكليدار فقيل له انه هرب، فأمر بعزله ونصب الحاج مهدى كمونة محله. ثم استخرج ورقة من جيبه وفيها أسماء المسؤولين - بنظر الحكومة - وطلب البحث عنهم وتسليمهم، وقد قبض فعلاً على الرئيس السيد ابراهيم الزعفراني فكبل بالأصفاد، وأرسل الى بغداد حيث أودع السجن، فلبث فيه أياماً، وتوفي بالدرّن الرئوى، كما قبض على السيد صالح الداماد وأبعد الى كركوك، ثم شفع فيه السيد علي النقيب فأخلي سبيله. كذلك طورد بعض السراة أَضراب السيد عبد الوهاب الطعمة سادن الروضتين، وعلي كشمش، وطعمه العيد، وبعض السادة من آل نصر الله، والنقيب، ثم عين حاكماً على كربلا، وأَمر بإِبقاء ستمئة جندي كحامية فيها، وعاد الى المعسكر، ومن ثم

فارق المدينة الى النجف. وقد أرخت هذه الواقعة بحساب الجمل بالكلمتين (غدير دم) ويقابل ذلك السنة ١٢٥٨ للهجرة (١٨٤٣م) وصادف ذلك اليوم الثاني لعيد الأضحى في السنة المذكورة.

عدد القتلى والجرحى:

اختلفت الروايات وتباينت في تقدير عدد القتلى والجرحى في حادثة تسخير كربلاء من قبل الوالي محمد نجيب باشا، وما فقد من أموال ومجوهرات أثناء هذا التسخير اختلافاً كبيراً، لأنه استند الى العاطفة دون الإحصاء.

قال السيد حسين السيد أحمد البراقي في مخطوطٍ له اسمه «الدرّ المنثور» ما نصه:

«حدثني من كان في ذلك العصر، كالميرزا حسن الطبيب ابن المرزا خليل، والشهيد مهدي الخوجه،

وغيرها ممن لا حصر لهم، أَن القتلى كانوا يزيدون على الأربعة وعشرين ألف شخص. وسلب جيش نجيب باشا من الأموال والأَطعمة من مخازن الكربلائيين في هذه الواقعة، التي سميت بغدير دم، حسب دفاتر التجار، سبعة عشر ألف طغار - ما يساوي ٣٤ الف طن - من الحنطة والرز عدا غيرها من الحبوب. واحصي عدد القتلى بما يقارب ٢٤ الف قتيل، ما بين رجل وامرأة وطفل، ومنهم سحقا بالارجل لازدحامهم للهرب... الخ».

وقال الشيخ حسن بن الشيخ جعفر كاشف الغطاء المتوفى عام ١٢٦٢هـ (١٨٤٧م) في مخطوطته المسماة «العبقات العنبرية في الطبقات الجعفرية» والمخطوطة محفوظة في مكتبة آل كاشف الغطاء في النجف برقم ٨٢٩ مخطوطات:

«كان عدد القتلى، على ما حدثني ممن حضر الواقعة من المعتبرين، زيادة على عشرين الف رجل

وإمرأة وصبي ، وكان يوضع في القبر الاربعة والخمسة الى العشرة ، ويهال عليهم التراب بلا غسل ولا كفن . قالوا تفقدنا الدور فوجدنا كثيراً من القتلى فيها . ومنهم وجدناهم موتـى في الآبـار ، ومنهم في السراديب حتف انوفهم » أهـ .

ونقل السيد عبد الحسين الكليدار في ص ٤٥ من كتابه « بغية النبلاء في تاريخ كربلاء » عن زنبيل فرهاد ميرزا معتمد الدولة قوله : « ومن المحقق أن تسعة آلاف شخص قد أبيدوا عن آخرهم في تلك المدينة المقدسة ، فضلاً عما نهب من الاموال والاحجار النفيسة ، وأثاث البيوت والكتب التي لا تعد ولا تحصى » .

وفي ص ٣٠ من الجزء الثاني من كتاب مقالة على الشيخية لنقولاس « وقتل فيها قريباً من تسعة آلاف شخص أغلبهم من الفرس » .

وجاء مثل هذا التقدير في تاريخ مجهول أرّخ

عهد الوالي داود باشا ومن جاء بعده، والكتاب مخطوط في مكتبة الاستاذ المحامي عباس العزاوي.

وفي ص ۲۷۹ من «موسوعة العتبات المقدسة» للاستاذ جعفر الخليلي «قسم كربلا - القسم الاول»:

«وتقدر الروايات المعتدلة ان عدد القتلى بلغ أربعة آلاف نسمة بين الاهالي، وخمسمئة من الجيش المهاجم».

وعلى كل، لما كثر القيل والقال، وكثرت المبالغات في تقدير عدد القتلى والجرحى، وارتفعت القضية الى مصاف الازمات الدولية، بعث سفير بريطانية في الاستانة مندوباً عن حكومته الى كربلاء، وهو الكولونيل ڤارنت، للتأكد من صحة هذا العدد. وفي الوقت نفسه طلب السفير الروسي فيها، الى المندوب البريطاني المذكور، أن يمثل الجانب الروسي في هذا التحقيق أيضاً. أما حكومة الاستانة فقد أوفدت نامق باشا للقيام بالمهمة

نفسها . وقد جاء في تقرير FARREN المؤرخ في ١٥ أيار ١٨٤٣م «ان عدد القتلى لم يزد على الخمسة آلاف نسمة، ثلاثة آلاف قتلوا داخل المدينة ، وكان معظمهم من العرب ، وان آلافاً من الإيرانيين فرّوا من البلدة قبل أن تفتحها قوات الحكومة . وكان بين القتلى ثلاثة من الهنود ، وآخر يحمل الجنسية الروسية » أما المندوب العثماني نامق باشا ، فقدر عدد القتلى في المدينة بحوالى ٢٥٠ ، بينهم مئة وخمسون إيرانياً ، وادعى أن خسارة الجيش العثماني بلغت ٤٠٠ قتيل و ٢٠٠ جريح .

والمعروف أن أخبار كربلاء المؤسفة ما كادت تصل إلى إيران ، حتى اضطرب الرأي العام فيها وهاج ، وقامت قيامة العلماء والخطباء للمطالبة بالثأر . وكان الشاه محمد مريضاً ، فكتم وزراءه النبأ عنه . فلما شفي من مرضه ، وأحيط علماً بما حدث ، تملّكه الغضب الشديد ، وأقسم أن يتخذ الإجراءات العسكرية للإنتقام .

وكانت العلاقات بين الدولتين: العثمانية والإيرانية متوترة، ولكن سفيري بريطانية وروسية عملا عملاً متواصلاً لتهدئة الحالة، وإذا بالحكومة الايرانية تتقدم الى الباب العالي بالأمور التالية:

١ً- ان يدفع السلطان (العثماني) تعويضاً لمنكوبي كربلاء

٢ً- ان يعلن الباب العالي عدم رضاه، وعدم موافقته على حملة نجيب على كربلاء، وأن نجيباً لم يحصل على التصريح بذلك.

٣ً- أسف الباب العالي لإسالة الدماء.

٤ً- أن يعيد نجيب باشا ما تخرّب من العتبات المقدسة.

٥ً- أن يحكم بالعدل، ويحمي الفرس في المدينة، والحجاج إليها.

٦ً- أن يهدِّد نجيب بالعزل إن هو أساء التصرف فيما بعد.

٧ً- أَن تعلن هذه المقررات لجميع السفراء

ولقد وافقت الحكومة العثمانية على هذه الأمور، بما عدا الأمر السادس، المتعلق بتهديد نجيب بالعزل، إذ اعتبرته تدخلاً في أمور الدولة الداخلية[١].

شاهد عيان يتحدث:

فيما يلي تعريب قسم من ارجوزة تتكوّن من (٢٦٠) بيتاً، نظمها شاهد عيان باللغة الفارسية، وهو الميرزا زكي حسين الهندي، الذي اختفى في دار علي شاه ابن فتح علي شاه القاجاري، ليقصّ على الأحياء ما شاهده بأم عينيه عن «مجزرة كربلاء» التي أرّخت بكلمتي «غدير دم» أي سنة ١٢٥٨ للهجرة، وهي من مخطوطات مكتبة السيد حسين القزويني في كربلا.

---

(١) راجع ص ٣٣٧ من كتاب «تاريخ العراق الحديث» للدكتور عبد العزيز نوار نقلاً عن وثيقة انكليزية معتبرة.

قال الزكي الهندي في أرجوزته ما خلاصته:

في يوم ١٧ ذي القعدة سنة ١٢٥٨هـ. (١٨٤٢م.) وصل إلى خارج كربلاء ستة آلاف جندي تركي، يقودهم سعد الله باشا، مرسلين من قبل والي بغداد نجيب باشا. وبعد أن خيموا، أرسل القائد رسلاً إلى البلدة لمقابلة العلماء، والأشراف، ورؤساء القبائل المقيمين في كربلاء، أضراب السيد ابراهيم الزعفراني، وطعمه العيد رئيس قبيلة بني سعد، وعلي كشمش، والسيد صالح الداماد، والنقيب (لم يذكر اسمه) ورئيس اسرة آل نصر الله. وكان يتزعم هؤلاء السيد عبد الوهاب آل طعمه حاكم كربلاء وكليدار الحرمين الشريفين، فأيد الرسل لهؤلاء النصّح والكفّ عن العصيان، فلم تؤثر فيهم، بل أصروا على الطغيان فرجع الرسل خائبين. فأرسل السيد عبد الوهاب آل طعمه، السيد كاظم الرشتي، وعلي شاه القاجاري، لمواجهة قائد الحملة والوالي، وإقناعهما بسحب الجيش من

كربلاء والكف عن إرسال الجند لإثارة الحرب، فلم يؤثرا فيهما. وعندها أنذر نجيب باشا العلماء، والأشراف، والأهلين من العجزة، والاطفال، والنساء، للخروج من المدينة. وعلى أثر ذلك فتح الأهلون النار على الجنود في يوم ٢٠ ذي القعدة ١٢٥٨، ففرّ القائد سعد الله باشا مع جنده هاربين.

وعلى أثر هذا الخذلان، أمر نجيب باشا أن تستخدم المدافع والخمبارات (قنابر يدوية) ضد الأهلين، فدخل الاهلون إلى داخل المدينة، وأقفلوا أبواب السور، وصاروا يرمون الجنود من أعالي السور بالحجارة، والطلقات النارية. فلما ضايقتهم المدافع والخمبارات، استنجدوا بالعشائر والمعدان من آل فتلة، واليسار، وللكبيسات، وغيرهم، فأنجدتهم بثلاثة آلاف مقاتل، غير أن هؤلاء ما كادوا ينزلون البلدة حتى شرعوا في نهب أهلها بدون رأفةٍ ولا شفقة.

عاد سعد الله باشا فجعل سور المدينة هدفه ، فصوّب المدافع والخمبارات نحوه ، فأَخذت فيه عدة فتحات من جهة باب النجف ، وباب الخان ، حتى تمكن الجند من الدخول الى البلدة ، وعندها أصدر نجيب باشا الأمر بقتل كافة الأهلين ، ونهب اموالهم ، فيما عدا ثلاثة أماكن جعلها مأمناً للنساء ، والاطفال ، والمسنين الابرياء ، وهذه الاماكن هي حرم الحسين (ع) المحاط بالجند ، ودار علي شاه القاجاري ، ودار السيد كاظم الرشتي . فدخل الجيش المدينة ، وتزاحم الناس على دار الرشتي ، بحيث اختنق ستون شخصاً من هؤلاء ، واستمرت استباحة البلدة ثلاثة أيام بلياليها ، قتل خلالها الكثير من السادة ، والاشراف ، والابرياء ، من اللاجئين من راجات الهند ، والافغان ، والباكستان ، وشاهزادات ايران ، بحيث بلغ القتلى ثمانية عشر الفاً . وعند ظهر اليوم الثالث ، دخل عدد من الجنود دار علي شاه القاجاري للاعتداء على النسوة ،

فخرجت احداهن حاسرة الرأس ، حافية القدمين ، ودخلت الى صحن الحسين حتى دنت من نجيب باشا ، وهو على صهوة جواده ، ونادته قائلة « اهكذا يعمل بأبناء الملوك يا باشا ؟ » فاصدر الوالي أمره بوقف المجزرة ، وعاد الى بغداد تاركاً بعض الجنود في كربلاء ، وعين لها حاكماً تركياً وقاضياً مدنياً .

الاخرس وتسخير كربلاء :

وللشاعر المشهور عبد الغفار الاخرس الموصلي مولداً ، والبغدادي مسكناً[1] قصيدة مطولة يمجّد فيها قسوة الوالي محمد نجيب باشا وبطشه ، ويهنيّه بفتكه وتسخيره المدينة المقدسة ، ويفتخر به لأنه ضحى بنفوس المقاتلين في

---

(١) ولد عبد الغفار بن السيد عبد الواحد في الموصل الحدباء عام ١٢٢٠ للهجرة . وبعد ان اقام في بغداد سنوات طويلة ، رحل الى البصرة الفيحاء ، وارتحل الى دار البقاء فيها عام ١٢٩٠ ودفن في مقبرة الحسن البصري بالزبير . فيكون عمره سبعين عاماً .

عيد الاضحى. ومهما جاء في هذه القصيدة من ضروب التشفّي، فقد رأينا ان ننشرها بحروفها لأنها تصف العذاب الذي أنزله الوالي بأهل كربلا وصفاً دقيقاً، وتذكر الوسائل التي لجأ اليها لتجنب الكارثة فلم يفلح، قال الاخرس:

لقد خفقت في النحر ألويةالنصر
وكان انمحاق الشر في ذلك النحر
وفتح عظيم بعلم الله انه
ليستصغر الاخطار من نوب الدهر

علت كلمات الله وهي علية
بحدّ العوالي والمهندة البتر
تبلج دين الله بعد تقطب
ولاحت أسارير العناية والبشر
محا البغي صمصام الوزير كما محا
دجى الليل في اضوائه مطلع الفجر

وكرّ البلا في (كربلاء) فاصبحت

مواقف للبلوى ووقفا على الضر

غداة ابادت[1] مفسدى أهل كربلا

وكرت مواضيه بها أياكر

فدانت وما دانت لمن كان قبله

من الوزراء السابقين الى الفخر

وما أدركوا منها مراما ولا منىً

ولا ظفروا منها بلبٍ ولا قشر

وحذرهم من قبل ذلك بطشه

وأمهلهم شهرا وزاد على الشهر

وعاملهم هذا الوزير بعدله

وحاشاه من ظلم ، وحاشاه من جور

وأنذرهم بطشا شديدا وسطوة

وبالغ بالرسل الكرام وبالنذر

---

(١) وردت في ديوان الاخرس « ابيدت ».

ولو يصبر القرم الوزير عليهمو
لقيل به عجز وما قيل عن صبر
وصال عليهم عند ذلك صولة
ولا صولة الضرغام بالبيض والسمر
وسار بجيش والخميس عرعرم
فالليل اذ يسري وكالسيل اذ يجري
من الترك لم تترك على الارض مفسدا
يعود بها نظم المفاسد في نثر[1]
وقد افسدوا شر الفساد بأرضهم
الى أن أتاهم منه بالفتكة البكر
رمتهم بشهب الموت منه مدافع
لها شرر في ظلمة الليل كالقصر

---

(١) ورد هذا البيت في الاصل المخطوط للقصيدة ولم يرد في الديوان المطبوع.

رأوا هول يوم الحشر في موقف الردى
وهل تنكر الاهوال في موقف الحشر

فدمّرهم تدمير عاد لبغيهم
بصاعقة لم يبق للقوم من اثر
ألم ترهم صرعى كأن دماءهم
تسيل كما سالت معتقة الخمر
وكم فئة قد خامر البغي قلبها
على انها صيدت باحبولة الحصر
فراحت بها الاجساد وهي طريحة
تداس على ذنب جنته لدى الوزر
فأن مراد الله جار على الورى
ولا بد ان يُجري ولا بد أن يجري

تجول المنايا بينهم بجنودها
بحيث مجال الحرب أضيق من شبر

تلاطم فيها الموج والموج من دم

تلاطم موج البحر في لجة البحر

فلاذوا بقبر ابن النبي محمد

فهل سرّ في تدميرهم صاحب القبر

فان تركوا لا يترك السيف قتلهم

وان ظهروا باءوا بقاصمة الظهر

سيول دم القتلى غداة أبادهم

تسيل بهاتيك الازقة والجدر[1]

ولا برحت أيامه الغرّ غرة

تضيء ضياء الشمس في طلعة الظهر

ولا زال في عيد جديد مؤرخا

(فقد جاء يوم العيد بالفتح والنصر)

اي سنة ١٢٥٨ للهجرة

---

(١) لم يرد هذا البيت في ديوان الاخرس المطبوع في استانبول عام ١٣٠٤ وانما ورد في مخطوطة للقصيدة.

مضامين الرسالة

الموضوع | الصفحة

فهرست الاعلام